حول لاعقلانية الفلسفة

بقلم الدكتور حسام محيي الدين الالوسي

- ٢ -

ان ما ذكرته حتى الآن(*) ينعكس ليس فقط في تلوين وتقييم الفكر الفلسفي بل وفي التاريخ لهذا الفكر . فمن الطبيعي بعد ان فرضنا رابطة بين الفكر الفلسفي حسب التقسيم المعروف وبين انتاج ما قبله ، فكرا ونظما ، أقول من الطبيعي ان ينظر الى فكرة ان الفلسفة انما بدأت مع اليونان وبطاليس بالذات في القرن السادس ق.م. نظرة ريب وانكار ، وقد ساد القول بان الفلسفة ثمرة العقلية اليونانية والاصالة اليونانية طيلة العصور القديمة والحديثة وما زال له مؤيدون ، وكان الجدل بين هذا الفريق والفريق الآخر المعاكس الذي يحاول ان يرجع الفكر اليوناني الى ما قبله لا يتعدى مقارنة الفكر اليوناني في أطوار نضجه بالفكر الشرقي القديم بابليا أو مصريا أو صينيا أو هنديا ، مع اغفال المنهج الذي سلكه جملة التطوريين ، اعني ليس فقط مقارنة الفكرين اعلاه بعضهما ببعض بل محاولة الالتفات الى الفكر البدائي ، وتدرج هذا الفكر في جميع الميادين حتى ظهور الكتابة وما بعدها .

ان الجدل بين هذين الفريقين طويل عريض ، ويكفي لهذا البحث، الذي هو ليس بحثا في مدى أصالة الفلسفة اليونانية بالدرجة الاولى ومباشرة ، ببيان الخطوط العريضة : طرح ارسطو في كتابه « ما بعد الطبيعة » نظرية ان الفلسفة لا تبدأ الا على يد طاليس الملطي (٦٢٤ - ٥٤٦ ق.م) (٢٨) . وتبنى هذا الراي اغلب مؤرخي الفلسفة(٢٩) وكثيرون من المختصين بالفلسفة اليونانية مثل زيلر(٣٠ وكاثلين فريمان(٣١) . ولكن الذي استطاع ان يضعه وضعا قويا هو جون برنيت(٣٢) . ومن الجدير بالذكر ان بعض مؤرخينا مثل ابن صاعد الاندلسي والشهرستاني يرون رأيا قريبا من هذا(٣٣) . وقبل أن الخص شيئا من رأي برنيت أذكر ان الخط المعاكس ابتدأ بذيوحانس اللاؤسي (القرن الثاني ق.م) فهو يرى ان أول فلسفة انما قامت عند الشرقيين، وقد دافع عن هذا الرأي الاستاذ ري في كتابه «شباب العلم اليوناني». كما حاول كورنفورد ان يرجع العلم والفلسفة اليونانية الى الاساطير(٣٤) وهذا الرأي يستمد قوته من دراسة الشعوب البدائية والحضارات القديمة(٣٥) .

يعتمد أصحاب الرأي الثاني ، على مقارنة العلوم اليونانية والفلسفة بعلوم البابليين والمصريين في الفلك والهندسة والحساب(٣٦) ، وبفلسفة الهنود والصينيين القدماء ، كما يعتمدون على وجود فكرة الخلق من الماء - وهي التي قال بها طاليس - عند البابليين والمصريين(٣٧) ، وكذلك في أساطير الخلق الكريتية متمثلة في الاله فلكانوس الذي يمثل الرطوبة والمطر(٣٨) ، وذلك منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد . كذلك يعتمدون على الربط بين فكرة الشرقيين عن القدر والعدالة ، وهذه الافكار تلعب دورا مهما في الفكر الفلسفي والفكر الاسطوري معا .

وقد دافع برنيت عن الفريق الاول القائل باصالة وفجائية الفلسفة اليونانية منكرا كل صلة لها بالحضارات الشرقية في كتابيه المشار اليهما سابقا ، وتتلخص حججه بهذا الصدد في انه ليس المهم مشابهة قول طاليس لاقوال الامم الشرقية في أن الماء هو اصل الاشياء ، بل المهم في المسألة ، والذي من جرائه عد فيلسوفا ، ومن جرائه ابتدأت به الفلسفة هو بحثه عن أصل الموجودات بحثا فلسفيا باثارة المشكلة الفلسفية لاول مرة : ما أصل الاشياء ؟ وهل يمكن ارجاعها الى شيء واحد ؟ ، اما عن علوم البابليين والمصريين فهي في رأي برنيت ذات طابع عملي ولم تصل الى الطور النظري(٣٩) . ثم ينكر ان يكون للهنود او الصينيين فلسفة متقدمة على اليونان(٤٠) . وينكر محاولة بعض اليهود والمدافعين عن الدين ، مثل فيلون(٢٥ ق.م - ٤٠ ب.م) وكليمنت الاسكندري (١٥٠ - ٢١٧ ب.م) ارجاع الفلسفة اليونانية الى اليهودية ، وقد ردد قول هذين جوستين (١٠٣ - ١٦٧ ب. م) واثيناغوراس (ازدهر حوالي ١٧٧ ق. م) من المدافعين الاول عن الدين المسيحي(٤١) .

***

هذه اشارات وتلميحات الى رأي الفريقين ، وهو أمر كاف ليكون صورة محدودة فن الذهن تهيؤه بعد ذلك لاستئناف ما سبق أن بدأت به ،أعني مدى صلة الفلسفة بالفكر البدائي، وخطأ وضع تاريخ محدد معلوم نعتبره بداية للعلم او الفلسفة .

لا شك ان الحضارة اليونانية منذ القرن السادس ق.م متمثلة في الفكر الفلسفي المنظم كانت مرحلة متقدمة بلغ فيها الانسان مرحلة معقدة في التفكير وانتظامه ، ولكن من الخطأ القول بان الفلسفة وما قدمه اليونان في جميع الميادين هو ثمرة الجهد اليوناني فقط ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى من الخطأ اعتبار ان الفلسفة ، والعلم النظري قد بدءا في القرن السادس فقط . لقد اكتشفت حديثا - كما يحدثنا ديورانت(٤٢) مثلا - سلسلة الحضارات نشأت في بحر ايجه اعتبارا من (٢٥٠ ق.م) وهي الحضارة الكريتية (٢٥٠٠ - ١٤٠٠ ق.م) والحضارة المسينية (١٦٠٠ - ٩٠٠ ق.م) ، والثقافة الآخية (غزا الآخيون بحر ايجه حوالي عام ١٤٠٠ ق.م) . وهذا يفيد في ايضاح نقطة مهمة في هذا الجدل وهي ان الحضارة اليونانية ليست بريقا مفاجئا في بحر من الظلمات وهي ليست كذلك « ظهورا مفاجئا يصعب تفسيره كما يرى رسل(٤٣) بدون وجه حق سوى ثقته هو وبقية مؤرخي الفلسفة بشكل عام بنظريات زيلر وبرنيت ، كما تدل اشارتهم اليها ، وسوى ما في نظرية الاصالة اليونانية من مغازلة ودغدغة للميول القومية للمواطن الاوربي المنتمي الى الحضارة الغربية بوجه الخصوص باعتبارها وريثة لعقلية اوربية غربية مستقلة بنفسها عن حضارات الشرق واجناسه(٤٤) !

ان الحضارة اليونانية بعد القرن السادس ق.م هي سليلة حضارات موضعية متوسطة التاريخ من جهة (الكريتية ... الخ) وحضارات شرقية أقدم منها ومؤثرة فيها ، بابلية ومصرية وصينية ... الخ من جهة اخرى ، كما ان البحث التاريخي المتروي اثبت ان التقدم العلمي الفلسفي ، بل والاجتماعي والفني الذي حصل بعد القرن السادس ق.م في ملطية واثينا يرجع ايضا الى تهيؤ الظروف المحلية الملائمة(٤٥) .

★★★

على انني ارى ان هذا الجدل ليس فاصلا ، وليس مفيدا اذا وقف عند الحدود التي اصطنعها ووقف عندها الفريقان ، واذا ظل يجري على

(*) راجع القسم الاول من البحث في العدد الماضي من « الاداب » .

الطريقة التي نجده يسلكها عندما نقرأ كتابا لواحد من هذا الفريق او ذاك ، ذلك ، لاننا نتحث عن اصول الفكر الفلسفي موضوعا واسلوبا، وعن اصول العلم ، واصول النظم ، والعادات والقوانين الناضجة (منذ ما بعد ظهور الكتابة أو اختراعها ،وليس فقط منذ القرن السادس ق.م) فينبغي اذن ان نسير بالتنقيب خطوات كثيرة الى الوراء ، غائرين في أحقاب بالغة في القدم كلما استطعنا وامكننا العلوم الاجتماعية مثل دراسة الشعوب البدائية وسواها حتى يتسنى لنا عندئذ تلمس بواكير نشاطات الانسان في جميع الميادين وبذلك تتوفر لنا معلومات قيمة تخطط تنامي الفكر الانساني ، في كل المجالات ، وجزئيات تدرجه في ادراك الاشياء وتمييزها وتسميتها وفرزنتها ومعرفة خصائصها وعلاقاتها ، ومقدار ما يفيده وما يضره من البيئة التي تحيطه ودرجات تقدمه في تكيفه لها واخضاعها له . وسلوك هذا الطريق سيرينا اننا حينما سنصل الى القرن السادس ق.م ، سنجد ان ما قدمه الانسان في الاف بل ملايين سنيه عبر ابحاره الطويل هذا من أغوار ما قبل التاريخ ، في مجال تقدم العمليات الفكرية ، تجمع التجارب عن العالم الخارجي وتعرفه عليه ، النظم ، الحرف والصنائع، العقائد ، التنظيم والادارة ، والاخلاق وتطور الحكم الادبي والمقياس الخلقي ، العلوم . الخ ، اقول سنجد ان ما قدمه الانسان في هذه المجالات قبل القرن السادس ق.م من الخطورة والضخامة بحيث يبقى معه القول بان هذا البلد او ذاك او هذا الجنس او ذاك ، أو هذه الفترة القصيرة أو تلك ، أنتج العلم والفلسفة ... الخ قولا مضحكا حقا !ولا يطمح القاريء في هذا الموضع الى مزيد بيان ، وساوافيه ببعض ما يشفي غليله بعد قليل .

***

وليس بامكان مجلة « كالآداب » أو سواها مهما كان صدرها رحيبا ان تتسع لتفصيلات خطوط تطور الفكر الانساني منذ كان الانسان حتى اليوم ، أو على أقل تقدير حتى فترة ما يسمى عادة « ما بعد الفلسفة » اي القرن السادس ق.م فما بعده . ومع استحالة معرفة كيف كان البدائيون يعيشون ويفكرون لانقطاع ذلك وبعده عنا الا ان دراسة الجماعات البدائية التي ما زالت حتى العصور الحديثة ، وما سجله الباحثون عنها كافية لاعطاء صورة غنية التفاصيل في هذا الصدد ، حتى ان الفيلسوف الاجتماعي هوبهوز وهو يؤرخ خطوطا لنشأة وتطور الفكر البشري تجاوز في احد كتبه الثمانمائة صفحة ، وما زال في النفس شيء من حتى ، مع انه ركز كل التركيز على الجماعات البدائية وحدها تقريبا . واتمثل بهوبهوز دون غيره لانني سأستعين به كثيرا في اجلاء جوانب في العقلية البدائية وتطورها لتساعدنا على تقدير استمرارية الفكر ، وعدم امكانية تسجيل بدايات له ، وعلى مدى ما خلفه في الفلسفة عموما حتى بعد نضجها من آثار فاصلة في موضوعها وطرقها .

***

في كتابه المهم : « Morals in Evolution » (٤٦) . يقسم هوبهوز المراحل التي يمكن رسمها - لزيادة الفهم - ولاغراض التنظيم، - مع ان المسألة تحكمية ومصطنعة - ، اقول يقسم هوبهوز المراحل التي مر بها الفكر الانساني أو العقل البشري الى خمس مراحل - وبعض هذه المراحل ستلتقي من قريب او بعيد بمراحل اوكست كرمت الثلاث المعروفة - وهذه المراحل الخمس هي : -

١ - مرحلة مجتمعات ما قبل الكتابة

٢ - مرحلة بواكير العلم في الشرق القديم ، بابل ومصر والصين القديمة

٣ - مرحلة التأمل في الشرق في اطواره المتأخرة من القرن الخامس ق.م في الصين وفلسطين والهند

٤ - مرحلة التفكير الانتقادي المنظم في الاغريق

٥ - المرحلة الحديثة ابتداء من القرن السادس عشر متخذة شكلا مستقلا

ولا يلبث هوبهوز ان يجعل هذه المراحل اربعا حسب مواصفات معينة ولكن علينا ان نفهم منذ البداية انه لا يقول بالقطع اعني ان تكون هذه المراحل ذات نهايات حادة وفجائية ، بل هي على شكل خط بياني صاعد وعملية التقسيم عملية للفهم ، ونهاية كل مرحلة متصلة بما بعدها اتصالا هادئا وليس بشكل طفرة ، وستراه يؤكد على ان جذور آراء ونظم كل فترة تمتد بعيدة في المراحل التي قبلها .

قلنا انه يجعل هذه المراحل الخمس اربعا وفقا لمواصفات معينة ، فمثلا بالنسبة لنمو الفكر يقاس هذا النمو وفقا لدرجة سيطرة الانسان على الطبيعة ، سعة الفكرة ، درجة الوعي بها وهكذا ، وهذه المراحل هي:

آ - المرحلة السفلى ويمكن الوصول اليها من تحليل افكار المجتمعات البدائية المعاصرة ، وتتميز هذه المرحلة بما يأتي : ١ - التفكير ما زال في بداية تكونه ، وكذلك فان التمييز بين الاشياء لم يزل في دور التكوين وغير كاف ، ٢ - تستند الاستنتاجات عند البدائي على مقارات لا شعورية بين الاشياء وعلى اختلاط وتداخل أفكاره عنها ، ٣ - لا تستند التعميمات على اساس التكنيك ، بل على اساس من وطاة العاطفة ، ٤ تسيطر الدوافع اللاشعورية على التفكير ، وليس ثمة من طريقة لضمان موضوعية الاحكام او يقينية الحقيقة ، ٥ - هناك ودائما عوامل نفسية تشجع الانسان على ان يكون عقائده تحت ضغط الحاجة الى تبرير الاعمال التي يدفعه اليها الشعور ، وبذلك يتمون بنوع من الاحساس بالوحدة وبالراحة العقلية في المواقف المحيرة .

هذه المميزات تظهر في السحر وفي المذهب الحيوي وفي الميثولوجيا ، وما تزال موجودة وراء السطح الخارجي لتفكيرنا الحاضر.

ب - مرحلة الحس المشترك أو العام هنا نجد ان التفكير ما زال غير منظم وقواعد الاستنتاج الصحيح لم تتم بعد ، ولكن السلوك العملي للانسان الموازي او المواكب لهذه المرحلة الفكرية يظهر نوعا من الاستفادة من التحليل والمقارنة كما ظهر في هذه المرحلة شيء من القدرة على الفصل بين الاعتقاد وبين الرغبة كذلك فان الافكار العامة التي وصل اليها انسان هذه المرحلة كافية للربط بين الخبرات السابقة والعمل المباشر ولكن مباديء الترابط الداخلي بين الاشياء لم تحلل بعد الى اعلى من مستوى الحاجات العملية ، ولذلك فان الفكر لم يكن تأمليا ، أي ان العمليات الفكرية المتضمنة في العمل، او التي وراءه لم تمتحن طبيعتها ولا دلالاتها . وهوبهوز يستخدم اسم « الحس المشترك » لوصف حالة الفكر قبل عصر العلم والفلسفة التأمليين .

ج - مرحلة التصورات او التفكير التأملي المنظم : وهي المرحلة من مرحلتين وصل اليهما الانسان لاعادة تنظيم وتكوين عالم الخبرة ، وتنطبق هذه المرحلة الثانية على العلم والفلسفة التأمليين عند اليونان . وهذه المرحلة وان كانت قدمت اشياء جليلة فان الخاصية او الظاهرة البارزة المسيطرة عليها هي ان عالم الفكر والتصورات اصبح منفصلا عن عالم الواقع والخبرة ، بحيث ان الافكار والتصورات اصبحت تكون لها عالمها الخاص ، واصبح التفكير يستند على اقيسة وقواعد ومباديء تعتبر مستقلة بنفسها عما تقدمه الخبرة ، حتى لو كانت هذه الاقيسة ... لا وجود لها في عالم الخبرة والواقع. وهذه الطريقة الجدلية للوصول الى الحقيقة هي التي يسميها اوكست كومت بالمرحلة الميتافيزيقية ، وهي المرحلة التي تعقب عند الاخير « مرحلة الخرافة » وتتقدم « المرحلة الوضعية او العلمية » .

ومن المهم الا تفوتنا ملاحظة أن اشارة هوبهوز هذه الى انفصال عالم الفكر والتصورات عن عالم الواقع في هذه المرحلة يستدعي في الذهن ما ذكرناه اول هذا المقال عن « ديوي » من ان الفعاليات البشرية اتخذت طريقين : طريق التخيل ، الذي قاد الى الاسطورة والخرافة ، فالفلسفة بشكلها الكلاسيكي عند اليونان فما بعد خصوصا في المدارس

الفلسفية المثالية ، وطريق تراكم الخبرة العملية التي اثمرت كل ما حققته العلوم الطبيعية والعملية من تقدم حتى الان .

د ـ المرحلة الرابعة ويسميها مرحلة اعادة تكوين الخبرة على اساس تجريبي : تتميز هذه المرحلة ، التي تكونت بشكل واضح منذ القرن السادس عشر للميلاد بمحاولة ارجاع الافكار الى التجارب العملية التي ولدتها والحكم على تلك الافكار على اساس درجة ما تلقي من ضوء على هذه الخبرات ، وجوهر اعادة التكوين هذه هو ان الفكر لا يهتم بالنتائج فقط ، بل وبطبيعة العمليات والتجارب التي بواسطتها تم الوصول الى النتائج ، مع الاعتراف بان الفكر قابل دائما للتغير ، وانه يتحدد ب ويخضع في كل فترة لـ طرق وسعة الخبرة او التجربة الممكنة ، وان الافكار ما هي الا نتيجة او نتائج لمرحلة معينة مستوية ناضجة ، ولكن جذورها تغور بعيدا في اغوار المراحل السابقة لها ـ كما سنوضح بعد قليل ـ . وهدف محاولة اعادة التكوين هذه هو ربط البناء الفكري بظروفه الخاصة . ان هذه المراحل الاربع لتطور العقل والمعرفة تقابلها مراحل اربع لتفسير تطور كل من الدين والاخلاق.

***

هذا الكلام الذي سقته ، ما زال محتاجا الى تفاصيل اخرى ، لكي نضع ايدينا على جزئيات تطور وتنامي الفكر البدائي ، واهمية ما اكتشفه او اخترعه الانسان قبل القرن السادس ق. م ، واهمية المرحلة الفكرية التي وصلها الانسان البدائي ومن جاء بعده حتى ذلك القرن ، والتي بدونها ولولاها لما وصل الانسان الى المراحل الثالثة والرابعة بعدها ، وليس هذا فقط ، بل ان توضيح جزئيات الفكر البدائي ستساعدنا على تلمس مدى ما تدين به الفلسفة التأملية ، لذلك الفكر الذي يوصف عادة بانه ((ما قبل الفلسفة)) من دين ، سواء في الموضوع ، او في الشكل :

في المراحل الاولى التي يمكن الوصول اليها من حياة البدائيين تسيطر الطوطمية والسحر والمذهب الحيوي . وهذه المسائل كانت تقوم على مستوى فكري معين تتلخص اسسه على وجه الاجمال في ان الانسان في اوطأ مراحله المعروفة لدينا لم يكن يميز بين العقل والمادة، بين انسان وحيوان ونبات وجماد ، فهذه كلها كانت تعتبر عنده على مستوى واحد متقارب اكثر مما يظهر لنا ، وهي عنده متحدة بنوع من العلاقات الخفية ، وهذه الروابط هي الوسائل التي يستخدمها السحر (هوبهوس ص ٢٧٤) ، وهي التي جعلت من الممكن قيام الطوطمية . وكان البدائي يعامل الاشياء كلها كموجودات حية ، وفي مرحلة اعلى كاشياء مسكونة بالارواح وكان البدائي يدرك ادراكا مشوها بعض روابط السببية وآثار الاشياء بعضها في بعض وان كان يخطىء التحليل والحكم فيعزوها اي يعزو تأثيرات الاشياء بعضها في بعض الى قوى خفية ، كما كان يدرك ويطبق صورة ، بل صورا مشوهة لمبدأ الذاتية وفي هذا نجد التفسير المقنع لمزاولته لعمليات السحر على نطاق واسع . وفيما يلي تطبيقات وابعاد هذا المستوى من التفكير والفهم كما تظهر في الاسس التي تقوم عليها عمليات السحر : يمكن تمييز ثلاثة مبادىء : الاول : هو ما يسمى Contagions Magic، والمبدأ يصاغ هكذا : ((كل ما يعمل أو يؤثر في الاشياء التي تخصني فهو يؤثر في)) ، فاذا كان ثمة شيئان متصلين جيدا مثل ان يكونا جزئين لشيء واحد فانهما يبقيان حتى بعد انفصالهما متحدين ـ في اعتقاد مزاول السحر ـ بحيث اننا اذا اثرنا في احدهما حصل التأثير في الآخر ، فمثلا قلامة ظفر ، او شعر مقصوص ، اذا احرق حصل التأثير في صاحب القلامة او صاحب الشعر المقصوص ، وهذا ينطبق على كل ما يعود للمرء ، اسلحته ، بقايا طعامه ، ظله ، صورته ، اسمه ، فكل هذه تقوم مقام الشخص نفسه . هذا المبدأ اذا حللناه نجد انه يعتمد على فكرة ان الهوية التي ربطت مرة بين شيئين تبقى بشكل من الاشكال مستمرة ، فالشعر المقصوص كان مرة جزء من صاحبه فان هوية ذلك الصاحب تظل في الشعر بعد قصه ايضا (هوبهوس . ص ٣٨١) .

والمبدأ الثاني للسحر : يقوم على تشويه آخر لمبدأ الذاتية ومنطوق هذا المبدأ الثاني للسحر هو : ((اذا لم تستطع ان تمسك بالاشياء التي ترجع لعدوك فتستطيع على الاقل ان تجعل شبيها له او لها)) وهذا الشبيه قد يكون من المعدن او الشمع او الخشب او الطين ، فاذا احرقته ، او ذوبته ، او غرزت فيه سكينا او مسامير حصل التأثير في صاحب الشبيه او في المشبه له ، ومن الامثلة على ذلك ان الانسان البدائي يحاول ان يحصل على اشعة الشمس بان يشعل النار ، أو المطربان ينث الماء على بقعة صغيرة (ص ٣٨١) ، والمبدأ هنا هو ان الاشياء المتشابهة والعمليات المتشابهة هي شيء واحد ، فرش الماء على بقعة صغيرة عند البدائي سيكون بداية لنزول المطر على نطاق واسع ، وكذلك عندما يقتل البدائي دبا واحدا أو يكرمه فكانه يقتل او كانه يكرم جميع نوع الدب ، وسواء كانت برجلين او باربع ، فان كل ما يصيب واحدا منها يصيب جميعها لان مبدأ الذاتية كان في طوره الاول، فلم يكن من النضج بحيث يميز البدائي الافراد داخل النوع الواحد . وبنفس الطريقة يمكن جعل طوطم ما رابطة او رمزا يوحد الناس والحيوانات مثل الدببة والانسان وذلك بان يقوم الانسان (القبيلة ، او العشيرة) باكل دب من الدببة وبهذا يصبح نوع الدببة كله موجودا في العشيرة أو القبيلة ، وبذلك يرتبطان (العشيرة والدببة) .

اما المبدأ الثالث للسحر فيتعلق برأي البدائي في الصفات التي للاشياء ، ففي الاشياء توجد قوى ومؤثرات هي سبب صفاتها وسلوكها، وهذه القوى شأنها شأن الارواح تكون منفصلة عن الموضوعات والاشياء التي تعود هذه الصفات اليها ، فيمكن لذلك ان تستخدم لاغراض السحر ويمكن نقلها الى اشياء اخرى ، مثلا عندما يتقدم السن بالصينيين قديما ، يوكلون الى الفتيات الفتيات صنع ملابس الموت او الاكفان لان جزءا من فتوتهن وشبابهن سينتقل الى هذه الملابس فتؤخر موتهم ، وعلى نفس الاساس تقوم محاولة الساحر لنقل مرض او وباء الى حجر وحرقه او ابعاده في مكان آخر ، فهذا الاساس الثالث للسحر يعتبر الصفة روحا ذات تأثير ، او هي اثر لم يصبح بعد روحا ، وهكذا فهذا المبدأ يشكل حلقة وصل بين مرحلة السحر ومرحلة المذهب الحيوي .

والمهم ان السحر والمذهب الحيوي (بنوعيه) يرجعان بشكل رئيسي الى نفس المستوى العقلي لدى الانسان في اطواره السحيقة ، ففي ذهن البدائي وهو يبدأ خطواته الاولى نحو تكوين النظريات ، اتجاهان :

الاول : يأخذ البدائي صفات الشيء ، والظواهر المكونة للشيء (مثل المطر) ، والافكار حول الشيء بل وحتى الكلمات والاسماء التي يعبر بها عنه ، ويحولها الى موضوعات ذات وجود حقيقي مثل الاشياء التي تعود لها ، فمقولات : الجوهر ، الصفات ، او الاعراض لم تكن متميزة بعضها عن بعض آنذاك وبسبب هذا الاختلاط فان التشخيص او الشخصانية ليس هو غير حالة متطرفة ، فالشخص الحي هو ليس اكثر من موجود متعدد الجوانب والموضوعات .

الثاني : كذلك فشل الفكر البدائي في ان يبقي الاشياء متفرقة بعضها عن بعض ، فهذا الشيء ينقلب الى ذاك ، فالاناء يصير فارة او مجرا ، فهو يتعامل مع الاشياء كانها ذات هوية طبيعية واحدة دون ان يلاحظ الفروق الطبيعية بينها ، فكون هذا الشيء لي يعني عند البدائي ان شيئا مني فيه وهكذا بحرقه يحرقني . وبايجاز : لم يكن الفكر البدائي قد وصل الى التمييز بين جوهر وصفة ، صفة وعلاقة ، سبب ونتيجة ، تشابه واختلاف ، هذه التمييزات او الثنائيات التي نجدها في الفكر المتمدن ، والتي يدركها كل طفل عمليا في الوقت الحاضر .

وعدم التمييز هذا هو اساس السحر والمذهب الحيوي (ص ٣٨٤)، واكرر ان المقولات في هذه المرحلة الواطئة تختلط في ذهن البدائي فمثلا ما هو الآن جوهر يصبح علاقة في وقت آخر ، وكذلك الصفة تصبح جوهرا ، فمع ان الافكار العامة قد كونت بالفعل في هذا الدور فانها واسعة المعنى ، وغير ثابتة عند الاستعمال (ص ٣٨٦) .

ان الحيوانات العليا وصلت الى حد من النمو العقلي لدرجة انها

تميز الموضوعات المحيطة بها وعلاقاتها الزمانية والمكانية ، وتستخدم هذا التمييز لقيادتها في سلوكها ، فهي تفهم بدرجة قوية صفات الاشياء والعلاقات بينها ، فعندما يكون الكلب عطشانا يعرف ان هناك ماء في « هذا الوعاء » وهو يعرف انني استطيع ان اسكب له منه ، وانه يستطيع ان يدفعني الى ذلك بان يجلب انتباهي ويرمز لرغبته ، كذلك فهو يستطيع ان يميز بين الاناء الصلب والماء السائل لاننا نراه يعاملهما معاملة مختلفة، ولكن ما يختص به الانسان هو أنه يهتم بالصفات النوعية التي بموجبها تتمايز الاشياء ، ويوجد لها اسماء مثل « صلب » و « سائل » . وبهذا الاكتشاف والتعريف لهذه الصفات النوعية حلل العقل البشري تجاربه أو خبراته الى عناصرها الاولية وبنفس العملية وفي نفس الوقت ربط الاشياء المجزءة معا ، فالصلب هو شيء يوصف به الاناء والبيت والطريق ، وهو يختلف عن الهواء والماء وعن الشكل وصفات الاناء الاخرى . فبهذه العملية المقارنة يجزيء العالم المرئي المدرك الى عناصره ويكون من هذه العناصر نظاما من الافكار . وكل فكرة تسمى باسم او بكلمة ، وكما انه توجد كلمة تعبر عن الاشياء توجد كذلك طرق للتعبير عن وظائفها وصفاتها وعلاقاتها ، وهكذا فان تجاربنا وخبراتنا اليومية تترجم الى افكار تقع ضمن مقولات معينة مألوفة ، اشياء وصفاتها ، اشخاص واعمالهم ، وظائف ، علاقات ، جواهر ، اسباب ، نتائج ، ولكن هذه المقولات لم تظهر مرة واحدة بشكل واضح تام . فقد رأينا انه مر بمرحلة واطئة لم يكن فيها قد وصل لا نظريا ولا عمليا الى التمييز بين الاشياء ، ثم تلتها مرحلة أعلى من تلك استخدم الانسان فيها هذه المقولات عمليا مدة طويلة قبل أن يصبح عارفا بها واعيا لها ، وبوضوح اتم اقول انه كان يسير في خبرته العملية وفقا لقواعد تتناسب مع تلك المقولات وان كان لم يعرفها بعد ، فهو يدرك الجواهر الحقيقية مثل الاحجار والتلول ، والناس ، والخيل ويدرك صفاتها واعمالها وخصائصها كالصلابة والطول والحركة السريعة قبل ان يكون قد سمع بكلمة جواهر ، صفات ، علاقات ، كمعان عامة . وهذه المرحلة التي عمل فيها الانسان وفقا للمقولات وان كان لم يسمها ، او يضعها وضعا نظريا تسمى مرحلة الحس المشترك (ص ٣٨٥) .

***

ما قلناه حتى الآن يفيدنا في تحديد مسألتين : الاولى عرضية وهي متى بدأت الفلسفة ؟ ، والثانية : هي مدى صلة ما يسمى بما بعد الفلسفة (بعد القرن السادس ق. م حسب النظرية الباطلة عندنا) بما يسمى بما قبل الفلسفة (قبل القرن السادس ق. م حسب نفس النظرية) . واذا اردنا أن نجعل السؤال مرضيا عنه من جميع الاطراف قلنا ان المسألة الثانية هي : مدى ما يدين به الفكر الفلسفي المنظم لما قبله ؟ ففيما يخص النقطة الاولى يمكن الآن تقرير ما يلي ، بناء على ما قدمناه : ١ ـ ان الفكر لا يبدأ مع اليونان ، وان اليونان ، أو فلاسفة اليونان على وجه الخصوص لم يكونوا بداية حلقات الفكر ، بل كانوا حلقة وسطى بعد سلسلة حلقات ظل الفكر والاخلاق والدين والفن والعلم التجريبي أو العملي تتسع فيها حلقة بعد حلقة ، ومما يدل على مغالاة نظرية الاصالة اليونانية الحقيقة التالية : وهي ان أسس التفكير وضعت في عصور ما يسمى « قبل الفلسفة » ! مثل تسمية الاشياء ، تمييز بعضها عن بعض ، معرفة خصائصها عمليا على أقل تقدير ، ادراك العلاقات فيما بينها ، كذلك فان الانسان قبل القرن السادس ق. م وهو ابتداء الفلسفة عند مخالفينا ، زاول مزاولة عملية المقولات والمبادىء المنطقية ووصلت هذه في اطوار متأخرة الى ما يدل على ادراكه لها ادراكا تاما ، يتضح ذلك في أحكامه الخلقية وقوانينه وهندسته وزراعته وبقية فنونه وحرفه ، ولم يبق لليونان سوى وضع هذه القواعد المنطقية وضعا رسميا بشكل قوانين رياضية او منطقية ، أي وضع الشكل ، خذ مثلا مبدأ الذاتية ، لقد تعامل الناس على أساسه بشكل مشوه اول الامر (انظر اسس السحر أعلاه) ثم استخدموه استخداما عمليا واضحا في حضارات متأخرة قبل القرن السادس ق. م بمدة طويلة ، ثم جاء ارسطو (مع سبق بعض فلاسفة اليونان لارسطو نفسه الى هذا المبدأ ، مثل بارمنيدس (٤٧) فوضعه بشكله القانوني كمبدأ مستخدما الرمز ليعيد قاعدة عامة (م هو م) .

٢ ـ ونفس الشيء يقال عن العلوم التجريبية والعملية ، فهي ليست من مخترعات اليونان ، نعم قاموا بوضع الاسماء لما لم يكن له اسم ، ووصفوا الصيغ النظرية لما تم اكتشافه ومزاولته منذ آلاف السنين قبلهم . طبعا قدم فلاسفة اليونان اكتشافات جديدة (٤٨) ، كما قدم كل عصر بالنسبة للذي قبله ، فهذه سنة التطور من تجمع الخبرات، ولكن الخط العلمي (بمعنى التعامل مع الطبيعة ومحاولة اكتشافها ، وفهمها والاستفادة منها والتكيف لها ، وتجميع الخبرات ، حتى على شكل اسطوري ، او حكمي) بدأ منذ بدأ الانسان على وجه الارض ـ ان كان بدأ ـ ، ان الكشوف العلمية ، لا تقاس بمقدار ما تقدم من سيطرة على الطبيعة او ما شابه بشكل مطلق ، بل بشكل مقارن ، بمعنى ان ما يعتبر كشفا علميا او اختراعا او سيطرة على الطبيعة ليس له مقياس واحد بل مقياس نسبي مقارن ، فان معرفة الانسان ان النار تحرق ـ واكتشاف النار بحد ذاته حدث علمي ـ ، وان النبات الفلاني يؤدي الى الموت ، تعتبر كشوفا علمية ، واهميتها للانسان الاول لا تقل عن أي اكتشاف علمي حديث ، مثل الجاذبية او قانون الاواني المستطرقة او ما شابه ، وكذلك فان اختراع المحراث ، أو استخدام النار او الربط بين الزراعة والفصول ، او اختراع اللغة ، او العدد ، هذه الاختراعات لا تقل اهمية عن اي اختراع حديث وهي اهم من التفسير العلمي الذي قدمه اليونان للخسوف والكسوف ، او معرفتهم ان الارض كروية .. الخ

وجميع المسائل التي تبدو عندنا تافهة ، وسائل الانتاج المتأخرة ، علاقات الانتاج البدائية ، انماط السلوك الجامدة ، النواهي ، على شكل « تابو » الملاحظات الاسطورية التي قدمها اجدادنا الاوائل عن الموجودات حولهم ، كل هذه هي التي كونت فكرنا ، من تجمعها شيئا فوق شيء ، وليس هناك اي مبرر (غير هذا الغلط في المقارنة بالانتقاص من خبرات الانسان في عصوره السحيقة) لجعل العلم او الفلسفة او « العقلانية » تبدأ في فترة معينة مقطوعة الصلة بكل ما عداها او قبلها ! يقول برنيت : ان الفلسفة عمل أثيني . فماذا يريد ؟ هناك نوعان من الفعاليات البشرية يمكن ان تطلق عليهما كلمة فلسفة :

آ ـ التصورات البعيدة عن الواقع والخبرة ، أي الموجودات الماورائية ، وهذه لم توجد عند اليونان فقط ، بل هي عندهم امتداد لفكر وتصورات الانسان البدائي ومن جاء بعده في المراحل السابقه لعصر الفلسفة عند اليونان .

ب ـ المسائل التجريبية العملية : كالعلوم الطبيعية والحرف الخ وهذه جمعية تدرجية ، بدأت مع بداية الانسان وقلنا ان كل جزئية صغيرة مثل اختراع ابرة الخياطة ، او فكرة الخياطة ، لا تقل علمية واثرا في حياة الانسان وتطور عقليته عن فلق الذرة مع اخذ مستوى التطور والقدم الزماني بنظر الاعتبار في هذه المقارنة .

٣ ـ تعيين المشاكل والموضوعات للفكر البشري ، نعم لقد عين الفكر البدائي المسمى « ما قبل الفلسفة » الموضوعات الاجتماعية والدينية والميتافيزيقية وغيرها ، وفرض ذلك الفكر ـ بما وصل اليه من نظم واخلاق وطبقات ، وحرف وفنون ، وثنائية بين المرأة والرجل ، وبين المادي واللامادي ، وبين الطبيعي وما وراء الطبيعي .. الخ ـ اثره على الفلاسفة اليونان ومن جاء بعدهم ، وحدد آفاق تفكيرهم ودرجات وعيهم لما يحيط بهم ، أن العبودية ، والطبقات ، وتخلف المرأة ، والحروب ، والخضوع لقوى خارقة ، والتصورات الخرافية عن الموت والخلود والعوالم الاخرى والتناسخ والولادات الجديدة ... الخ والآلات المستعملة في الزراعة وسواها وغير هذا وذاك ما هو الا تركة عصور ما تسمى قبل الفلسفة تسلمتها عنها الفلسفة اليونانية ومن جاء بعدها ، وتكفي مقارنة فكر افلاطون أو ارسطو بهذه المسائل لندرك عظم التركة وخطورتها ، صحيح اننا سنجد التعابير مختلفة والمنهج مختلفا ، والموضوعات مرتبة ، وكل الجزئيات موضوعة بشكل منسق منسجم ضمن فلسفة موحدة أو هيكل موحد ، الا ان الخبير ، الذي يفتش عن الجواهر

لا عن المظاهر ، سيجد ان معظم جزئيات وموضوعات ، بل وحتى اهداف فلسفة سقراط وافلاطون ، وارسطو ـ وهم اعمدة الفلسفة المثالية ـ حتى الآن تقريبا وعنوان نضج الفلسفة اليونانية وتكاملها عند معظم المؤرخين ، هي نفس معظم جزئيات وموضوعات واهداف الفكر البدائي « وما قبل الفلسفة » .

ويمكن القول على وجه التعميم لا الحصر ان الفلسفة اليونانية لم تفعل سوى ان تمنطق وتنظم نفس القضايا والمشاكل التي اوجدها وتصورها وزاولها من كان قبلها معتمدة على التسليم بهذه القضايا والمقدمات مثل : وجود النفس ، القوى العليا والالهه ، الاله الواحد ، العالم الآخر ، ولم يشذ الا قلة من فلاسفة اليونان عن هذا الخط ، ـ واعتبار هؤلاء القلة متخلصين من هذا التأثير تخلصا تاما ما زال موضوع اخذ ورد من المؤرخين (٤٩) ـ .

***

ان من الخير ـ دفعا للالتباس وزيادة في التفاهم بيني وبين القارىء ـ أن أشير باجمال الى اهم بقايا ما قبل الفلسفة فيما يسمى بما بعد الفلسفة ، ابتداء باليونان ، على سبيل التخطيط والتمثيل لا الحصر ، فان تعداد تفاصيل وكل آثار وبقايا الفكر البدائي وما بعده في فكر اليونان ومن جاء بعدهم امر اخطر من أن تتوفر له امكانياتي الضئيلة . وعلى كل حال فمن الخير ان نقنع بما عندنا من أشياء واضحة وبقايا ناطقة على عظم التأثير والتأثر ، هذه البقايا هي :

١ ـ الثنائية بين النفس والبدن ، فكرة ان النفوس تعبر حدود الزمان والمكان ، وانها بسيطة وخالدة ولا مادية ، فكرة وجودها قبل الجسم ، فكرة خطيئتها ، وفكرة الخطيئة بصورة عامة، تلبسها بالجسد، فكرة التطهير وخلاصها بعد الموت ، رجوعها الى عالمها الاول الروحي ، فكرة العالم الآخر بكل اشكاله .

هذه الثنائية خلاصة لتطور طويل حصل متدرجا متناميا منذ بدأ الانسان البدائي السحر والحيوية حتى وصل من خلال محاولات تكميل صورته عن النفس الى اعطائها كل الصفات التي تتجاوز حدود الامكانيات الطبيعية وامكانيات الجسد وحاجات الانسان (وربما عدت الى تفصيل هذا في المستقبل) ، وهذا كله انما يدل على ما يسمى « بالنفس » أو « بالروح » ليس هو موجودا ميتافيزيقيا ، عاليا على الطبيعة ، بل هو موجود اجتماعي ، نشأ من وبسبب الاجتماع البشري نفسه ، هذه الفكرة الحديثة عن النفس لم تصل اليها الفلسفة اليونانية متمثلة في اعظم ممثليها وفلاسفتها الكبار ـ عند البعض بشكل غامض ـ ، وما عدا ذلك فقد استقر هؤلاء في تصور النفس بنفس المنظار البدائي (الثنائية ، واعتبار النفس موجودا ميتافيزيقيا يعلو على الطبيعي) مع زيادة من مجاج وجدل لتقوية القضية وجعلها مقبولة عند عقول بدأت ـ لتبدل الزمن تستشعر شكا بتلك التصورات البدائية التي يدافع عنها الفلاسفة (البدائيون الجدد) .

مع ان هذه الحجج ، معروضة باقوى صورها عند افلاطون (٥٠) ، وابن سينا (٥١) لا تقنع الا مغفلا في هذه الايام ، اللهم الا من يقرأها وهو مؤمن بالقضية مسبقا .

٢ ـ الثنائية بين العالم المادي واللامادي ، المادة والروح ، العالم والالهة او الاله ، وخصوصا فكرة الاله باشكالها ، او بالاحرى بدرجات نموها التالية : (عبادة الاجداد ، عبادة ارواح شبه مادية ، عبادة ارواح غير مادية ، فكرة معبودات اقل من انسان في الصفات ، ثم معبودات مثل الانسان نفسه وبمستواه الجسمي والنفسي ، ثم معبودات اعلى منه ، فتعدد الالهة ، فالتوحيد ضمن اله مشخص وقومي أو اقليمي ، فاله عالمي مع التمييز بينه وبين العالم المادي ، فاله عالمي هو العالم شيء واحد « وحدة الوجود » ... الخ) (٥٢)

وقد لاحظ احد مؤرخي كتاب « ما قبل الفلسفة » عند كلامه عن اراء المصريين القدامى ان الانسان في اول امره كان يتصور الالهة تظهر من مادة اولى مثل الماء ، ثم لم يلبث بعد ذلك ان تصور الالهة والمادة ازليتين ومتعادلتين ككفتي ميزان لا ترجح احداهما على الاخرى ، والاله صانع وليس مصنوعا من الماء او اية مادة ، ثم لم يلبث الانسان بعد ذلك أن صار يرى الله هو الازلي الوحيد ، وانه خالق المادة بكلمته وقوته الخارقة للطبيعة (٥٣) .

ان الفلسفات ابتداء بسقراط فما بعد ـ على يد الفلسفة المثالية بكل اشكالها ـ لم تفعل سوى أن ثبتت فكرة الاله اللامادي بعيدة عن التناقضات (هذه التناقضات التي نجمت عن نفس المقدمات والصفات التي وصفت واعطيت للاله في عصور ما قبل الفلسفة ، مثل ان الله كامل ، ثابت ، ازلي ، غير مادي ، خارج الزمان والمكان ، وان العالم فعله ، او معلوله ، مع انه اي العالم : مادي ، ناقص ، متغير ، متكثر ، في زمان ومكان ، فحدثت من هذين التمييزين مشاكل : مثل : كيف يجيء المادة من اللامادي ؟ والناقص من الكامل ؟ والشر من الخير ؟ وكيف يكون الله ثابتا مع انه أوجد العالم في وقت لاحق ؟ واذا فرضنا العالم قديما بالزمان فكيف يكون معلولا لله ؟ وكيف يعلم الله المتغير ولا يتغير ؟ وكيف يعلم غير الموجود ؟ وكيف يكون علمه للجزئيات ، وكيف يحرك الله العالم المادي وينظمه والعالم زماني مكاني ، مادي ، والله ليس زمانيا او مكانيا وليس ماديا ؟ هذه بعض المشاكل العويصة التي يمكن أن تثار ، والتي اثيرت بالفعل بين المدارس اللاهوتية والفلسفية الخالصة (٥٤) ، وهذه المشاكل جزء يسير من مشاكل مثلها يمكن ان تثار على القائلين بهذه الثنائية ، بين الله والعالم مع القول بان العالم محدث بالزمان وبالذات ، او بالزمان فقط ، ويمكن ان تثار مشاكل مثلها على مذهب ارسطو ، او افلاطون ، او القائلين بوحدة الوجود والفيضيين ، بحيث تستعصي الميتافيزيقا على القبول عقليا نظرا لتعادل الادلة ، او لتكافئها على حد تعبير القدماء ، ونظرا لتعادل قضايا النقض والاثبات ، وسبب هذا الاستعصاء هو تسلم الفلسفة (ولا حاجة للتنبيه الى ان هذه المشكلة هي وقف على الفلسفات المثالية) لمقدمات وتصورات ما قبل الفلسفة عن الله والعالم ، الامر الذي حدا ب « كانت » الى ابطال الميتافيزيقا المثالية المؤسسة على العقل ، مع انه حاول من جهة أخرى ان يبني ما هدمه ولكن على اساس من الاخلاق وفكرة الواجب (٥٥) بشكل متهاو يدعو الى الرثاء .

٣ ـ فكرة النظام الميتافيزيقي ، اي ان العالم منظم ، وما ينتج عنها من النظر الى التأريخ وفلسفته : نظرية العصور الذهبية في الماضي والمستقبل (عالم الانفس السعيدة قبل هذه الحياة ، وبعدها ، او وجود الانسان في الفردوس قبل هذه الحياة ، وصيرورته اليها بعدها) ، فكرة التشاؤم وهي مقترنة بتلك ، اعني أن التأريخ يحقق تدهورا عن نقطة البداية الكاملة في الماضي ، فكرة تحقق العدالة في

زوروا

مكتبة الفجر

بواد مدني ـ السودان

ص. ب ٣٥١ ـ تلفون ٥٥٧

كتب علمية وسياسية وادبية

عالم غير هذا العالم (عالم الآخرة) ، فكرة تحقيق التأريخ للتقدم وفقا لتخطيط مسبق في علم او ذهن موجود اعلى ، او وفقا للمطلق .

هذه كلها فلسفات معروفة ، وآراء لها جذورها في تصورات البدائيين ومن جاء بعدهم (٥٦) ، ولها ممثلوها في الفلسفات المثالية وفي معظم الاديان ، وعند شعراء اليونان ، فهي تتمثل عند الاديان في فكرة الخطيئة الاولى ، ومعصية آدم والخروج من الجنة ، ففكرة العالم الآخر ، وتتمثل عند هزيود في فكرته عن العصور الذهبية ، وتتمثل في الفلسفة المثالية عند « هردر » و « هيكل » و « توينبي » عن تحقيق التأريخ وتقدمه لفكرة مسبقة في ذهن الله او المطلق ، وتتمثل عند افلاطون وافلوطين ومعظم فلاسفة العصور الوسطى ـ مسلمين ومسيحيين ويهودا ـ والفلسفات المثالية بعد عصر النهضة في ثنائية النفس ، تلوثها بالجسد ، تطهيرها ، ومصيرها أي خلودها ، وحتى عند الفلسفة النقدية (كانت) في فكرة العالم الآخر المحقق للعدالة (٥٧) .

فكرة النظام (٥٨) هذه ، وما ينتج عنها من هذه التصورات التي المحت اليها قبل سطور هي نتيجة لمقدمات وتصورات جملة التكوين العقلي والاجتماعي والعلمي الذي وصل اليه انسان « ما قبل الفلسفة »، اريد بذلك ـ بغاية الاختصار والاختزال ـ انها تصورات اوجدها ووصل اليها ذلك الانسان وهو يتعامل مع ما حوله ، وهي نتيجة لتصوراته التي المحت اليها في الفقرتين (٢) ، (٣) قبل قليل ، خصوصا تصور قوى ما فوقية ، وتصور وجود ثنائية (جسد روح ، عالم مادي جامد عقل او اله ، او الهة حية) ، وهي نتيجة لفيزياء وطبيعيات الانسان في عصوره المواكبة لتلك الثنائية ، اعني تصوره السكون كاصل للمادة ، وانها اذا تحركت فلا بد لها من محرك غير مادي ، وهي نتيجة لفكرة أن كل مادي ، حسي ، فهو شر ، ونقص (٥٩) ، وبالتالي فالنظام المتصور في المجتمع ، أو الطبيعة هو فعل قوى فوقانية غير مادية ، وكان يحدث في ذهن انسان « ما قبل الفلسفة » مقارنات كثيرة من هذا النوع مثلا: اذا كانت الحياة شاقة ، غير عادلة ، وغير سعيدة فلا بد ان تكون تدهورا لشيء كامل كان في الماضي، او لا بد ان مصدر ذلك هو الجسد، فالخلاص ضروري بالتطهير أو الزهد ، والخلاص يكون في عالم آخر ، وهاك مقارنة اخرى : هذا التدهور ما سببه ، ليس الله هو المسؤول عنه ، اذن فلا بد ان خطيئة ما حصلت ، الانسان (معصية آدم) أو النفس اخطأت (اشتياقها الى العالم المادي وتلبسها فيه هابطة من عليائها ، والخلاصة : هذه أمور اختلطت فيها الحاجة (الحاجة المادية ، الحاجة الى الخلود ، الحاجة الى العدل) بالآمال ، والظروف الواقعية الصعبة بالخيال ، وقصور العقل البدائي عن تفسير الظواهر بالتبدلات الطبيعية والمناخية الفجائية وكوارث الطبيعة المتلاحقة ، ولا بد ان القارىء يدرك ان هذه الفقرة الثالثة تحتاج الى تفصيل أدق ووقفة اطول .

***

بعد هذا كله ربما اكون مبررا اذا انهيت هذا المقال بالاحكام التالية :

آ ـ تتصل الفلسفة وثيق الاتصال وامتنه بالفكر البدائي وفكر ما قبل الفلسفة في الموضوع والهدف والمعالجة .

ب ـ الفلسفة بمعناها الكلاسيكي ، امتدادا من عهد اليونان (القرن السادس ق. م) ، ليست ، ولا يمكن ان تكون مرادفة « للعقلانية » .

جـ ـ تعريف الفلسفة بانها « موقف » اكثر التعاريف دلالة عليها، على ضوء ما كشفنا من جذورها وطبيعتها .

د ـ وبالتالي فان محاولة تحديد تأريخ محدد للفلسفة وللعلم محاولة غير مبررة .

***

وتبقى بعد هذا وذاك أمور اهم وغايات اعمق اتركها للقارىء اللبيب .

حسام محيي الدين الآلوسي

الحواشي

28 — Aristotle : Metaphysic , BK. I, 3, 983. Ed. and Tr. by Ross. 1908.

29 — For Example : B.D. Alexander, : Ashort History of Philosiphy, 3 rd Ea. Glasgow, 1934 Part. I. P. 7, ff. and, Bertrand Russel : History of Western Philosiphy, 1961 . P 21 .

30 — Zeller : Outlines of Greek Philosophy. Newyork. 1955 . P. 18 .

31 — K. Freeman : Companion to The Pre — Socratic Philosophy . Oxford . 1966 . P. Xi and P. 49.

32 — John Burne : Early Greek Philosophy. London. 1958 . P. 15 ff ; and : Greek Philosophy . London. 1961. P. I — 13 .

٣٣ ـ ابن صاعد الاندلسي : طبقات الامم ، نشر لويس شيخو ، بيروت ، ١٩١٢ ـ ص ، ٢٣ ، والشهرستاني : الملل والنحل ، تخريج محمد بدران ، الطبعة الثانية ، القسم الثاني ، القاهرة ، ١٩٥٦ ؛ ص ٦٤ ، حيث يقول « فان الاصل في الفلسفة والمبدأ في الحكمة للروم وغيرهم كالعيال لهم » ، والروم في تقسيمه هم اليونان ومن جاء بعدهم من الروم ، ويقول ص ٦٦ في ترجمته لطاليس : « وهو اول من تفلسف في « ملطية » . »

34 — F. M. Cornford : From Religion to Philosiphy. 1912 .

٣٥ ـ تفاصيل هذا النقاش مع المصادر موجودة في « محاضراتي في الفلسفة اليونانية » ، وبالنسبة للقارىء العام الذي يريد ان يقرأ شيئا عن الموضوع بالعربية انصح بقراءة : بدوي : ربيع الفكر اليوناني، ص ١٠ فما بعد وص ١٢ ، فما بعد ، واحمد فؤاد الاهواني : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، ص ١٧ فما بعد ، وعلي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان . ص ٧ فما بعد ، وكريم متى : الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، المقدمة . ومن المناسب الاشارة الى ان بدوي يرى ان محاولة الربط بين الفكر الفلسفي والعقلية البدائية اصبح مقضيا عليها الآن ، ونترك للقارىء الحكم على هذا الرأي بعد قراءته لمقالنا هذا . كذلك يمكن للقارىء ان يراجع بالعربية : ديورانت ، قصة الحضارة ، ج٦ ، ص ٢٥٠ فما بعد .

36 — For details on Ancient Science, See: Farrington **Scince in intiquity** 1936. P. 9 ff : and, Sarton : Ancient Science Through The Golden age of Greek. 1953.

37 — J. B. Pritchard : Ancient Near Eastern Texts New Jersy. 1955. P. 3 — 4 ; and : Henri Frankfort Before Philosophy. London. 1959 . P. 18 , 16 .

وبالعربية يمكن مراجعة : طه باقر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج٢ ، بغداد ١٩٥٦ ـ ص ٩٠ ، ١٠٩ .

٣٨ ـ ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ج٦ ص ٢٠ فما بعد .

٣٩ ـ برنيت ، كتابه السابق : فجر الفلسفة ... ص ٢١ فما بعد ، وكتابه الآخر ـ السابق ـ ص ٤ فما بعد ، وهذا ما يردده برتراند رسل ـ كتابه السابق ـ ص ٢١ حاشية .

٤٠ ـ برنيت : فجر الفلسفة ، ص ١٧ فما بعد ، وكتابه الآخر ، ص ٧ ـ ٩ ، وسبقه الى ذلك . زيلر ـ كتابه السابق ـ ص ١٨ ، حيث يرى وجود فلسفة عند الصينيين والهنود قبل اليونان ـ وهو امر لا يقره برنيت ـ ولكن في رأي زيلر هذه الفلسفة صوفية ولم تنفصل عن الدين .

41 — Gilson : History of Christian Philosophy in The Middle Ages . New york, 1955. P. 29, P. 555, Note. 14, and P. 16 : also : F. Copleston : A history of Philosophy, 1959. Vol. 2 . P. 16 — 19, 26.

٤٢ ـ ديورانت ـ كتابه السابق ، ج٦ ، ص ١٤ ـ ٢٢ .

٤٣ ـ سبقت الاشارة الى موضع هذا القول .

٤٤ ـ الاشارة هنا الى نظرية سامبين وآريين كما تظهر في كتابات رينان ، وعلى الرغم من تلاشيها ، فان ميل المؤرخين الاوروبيين الى نظرية الاصالة اليونانية ، من بقاياها . انظر : جوتيه : المدخل لتأريخ الفلسفة الاسلامية ، ترجمة محمد يوسف موسى ، القسم الاول، ومصطفى عبد الرازق تمهيد لتأريخ الفلسفة الاسلامية ، القسم الاول ، الفصل الاول ، ومقالي في مجلة الآداب الغراء ، العدد التاسع ، ١٩٦٧

بالاضافة الى : ديورانت ـ كتابه السابق ـ ج٦ ص ٤٩ ، فما بعد ، انظر ايضا :

45 — R. B. Appleton : The elements of Greek Philosophy. London, 1927. P. 12 — 13.

46 — Hobhouse, op. Cit, Part II. Ch. I and 2. and. The Introduction to The book my Ginsberg. P. Xvii ff.

٤٧ ـ هذا ما يعزوه له كورنفورد ، الذي يرى ان بارمنيدس هو واضع اسس المنطق الصوري القائم على مبدأ الذاتية وعدم التناقض لانه اكد على ما هو ثابت في الاشياء . انظر الاهواني : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ١٣٨ .

٤٨ ـ يفصل برنيت هذه الكشوف في كتابه : فجر الفلسفة ـ ص ٢١ ، وص ٢٣ ، مثل القول بان الارض كروية ، وتفسير الخسوف والكسوف تفسيرا علميا ، وان الارض ليست مركز الكون وانما هي تدور حول الشمس .

٤٩ ـ لعل مما له دلالة في هذا الصدد ما يقوله لويس وهو يناقش قول رتر Ritter وفكتور كوزان Victor Cousin ان طاليس كان ماديا ، لا يؤمن باله ، لانه قال بان الماء اصل الاشياء ، فيقول لويس معلقا : ان سكوت ارسطو عن ذكر شيء يتصل باعتقاد طاليس بالالهة ، دليل لصالح ان طاليس يؤمن بالهة لان الالحاد في هذه الفترة سيكون مثيرا حقا لارسطو ولا بد انه سيذكره ، كما ان فكرة الالحاد آنذاك شيء يناقض تأريخ الفكر البشري ، وهذه ملاحظة ربما تكون مهمة لاولئك المؤرخين الذين يحاولون ان يجعلوا المدارس الطبيعية الاولى للفلسفة اليونانية قبل سقراط ـ ما عدا الفيثاغورية ـ مدارس مادية وملحدة . انظر :

G. H. Lewes : Biographi Cal History of Philosophy. London, 1891. P. 29.

٥٠ ـ انظر « محاورة فيدون » ترجمة زكي نجيب محمود ضمن « محاورات افلاطون » القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٩٢ ـ ٢٢٠ ، وص ٢٧٧ ـ ٢٨٢ وكذلك : يوسف كرم : تأريخ الفلسفة اليونانية . طبعة ثالثة ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٩٠ ـ ٩٢ .

٥١ ـ يكتفي بكتاب ابن سينا : رسالة اضحوية في امر المعاد ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ومقدمة المحقق ، كما ان كتاب ابراهيم مدكور « في الفلسفة الاسلامية » القاهرة ١٩٤٧ ، واف بالغرض .

52 — Hobhouse, op. Cit, Part II. Ch. I. P. 367 ff. and Ch. 3, and. 4 .

53 — Husam al - Alousi : The Problem of Creation in Islamic , Thought , Baghdal, 1968, Part I. Ch. 4 P. 116.

٥٤ ـ انظر كتابي : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ، القسم الاول، الفصل الثاني ، والقسم الثاني ، الفصل الاول ، والقسم الثالث ، الفصل الرابع .

٥٥ ـ يكفي بالعربية مراجعة كتاب : اندريه كرسون : المشكلة الاخلاقية والفلاسفة . ترجمة عبد الحليم محمود وابو بكر زكري ، القسم الاول الطبعة الثانية ١٩٥٢ ، ص ١٤٦ ـ ١٥٢ ، والقسم الثاني، بعنوان « الاخلاق في الفلسفة الحديثة ، ١٩٤٨ ، ص ٥٩ ـ ٧٣ . ويوسف كرم : تأريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ ، ص ٢٤٣ ، فما بعد .

56 — Hobhouse , op. Cit. Note 4 , on P. 432.

٥٧ ـ يراجع عن تفصيل الفكرة مقالي : « فكرة التقدم بين الاطار النسبي والمطلق » الفكر الجديد ، مجلة قسم الفلسفة بكلية الآداب ، بغداد العدد الثاني ، ١٩٦٧ .

58 — See For Full details on This Idea : Robert Flint : Theism, 13 th Ed. 1902 .

٥٩ ـ ديوي : تجديد في الفلسفة ، الفصل الثالث . ص ١٥٠ والفصل الاول ص ٧٤ .

الاشتراكية والمرأة

ترجمة وتقديم

جورج طرابيشي

كيف تواجه الاشتراكية ، بمختلف أشكالها ، مشكلات المرأة ، على اختلاف صورها ؟

هذا هو الموضوع الهام الذي يعالجه هذا الكتاب. وقد تناول موضوعاته عدد من المفكرين والكتاب الاجتماعيين الذين اهتموا بوضع المرأة بصورة عامة ، فكتب ريازانوف عن « الشيوعية والزواج » ولينين عن « المأساة الجنسية » وبابلو عن «الفرويدية والماركسية» وتومسيك عن « مشكلات شرط المرأة الاجتماعي » وفيرا بلشاي عن « المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية » وسيمون دوبوفوار عن « مسيرة المرأة الصينية » وسواهم . كما ان هناك فصلا هاما يسرد رأي لينين في الحب الحر .

كتاب عظيم الاهمية يبين ما حققته المرأة المعاصرة من تطور في ظل الاشتراكية .

صدر حديثا ٤٠٠ ق.ل